

ابن عقيل الزُّرعي

حياته وشعره

الدكتور شفيق محمد عبدالرحمن الرقب
جامعة مؤتة

ترجمته

ضنّت المصادر التي وقف عليها الدّارس بالترجمة لابن عقيل الزُّرعيّ أو بذكره، ما عدا كتاب (عقود الجمان من شعراء هذا الزّمان) لابن الشعار الموصليّ، فقد ورد فيه ترجمة موجزة لهذا الشّاعر. وهو في هذه الترجمة أحمد بن عقيل بن نصر أبو العباس الزُّرعيّ العامريّ^(١)، وزرّع^(٢) التي ينسب إليها قرية على باب دمشق.

ولم ينصّ ابن الشعار على السنّة التي ولد فيها ابن عقيل، غير أنه ذكر أنه توفي شاباً في رمضان سنة ٦٢٣هـ^(٣)، وهذا يقود إلى القول إنه ربما ولد في الربع الأخير من القرن السادس الهجريّ.

وقد أشار ابن الشعار إلى اتصال ابن عقيل بالملك الأيوبيّ المعظم عيسى وملازمته له، وذلك إذ يقول: "خدم الملك المعظم عيسى بن أبي بكر، وجعل له رزقاً يتناوله كل شهر، وله فيه مدائح كثيرة وكان ملازماً حضرته سفراً وحضراً"^(٤).

ولم يظفر الدّارس بمعلومات أخرى عن حياة الشّاعر، ومن ثمّ فإنه سيعول على الشعر الذي قاله لرسم صورة تقريبية للمعالم البارزة في حياته.

ومن الظواهر البارزة التي يمكن استخلاصها من شعر ابن عقيل نشأته في منطقة حوران، فهو لا يفتأ يذكر الأماكن الحورانية في شعره معبراً عن حنينه

إليها، وكيف أنه قضى الأيام الجميلة من عمره فيها، كما في الأبيات التالية التي يتمنى فيها - وهو في مصر - أن يعود إلى بلاده، ذاكراً مواضع بعينها^(٥).

تذكَرْتُ فِي أَرْضِ بُوْسَى النِّعِيمِ وَبُشْرَى البَشِيرِ بِنَيْلِ المُرَادِ
فَمَرَوْ العِلَالَةَ إِلَى بَيْتِ رَاسِ فَارِيدِ فَالحِصْنِ ذَاتِ العِمَادِ^(٦)
بِلَادِ تَشْوَقِكَ دُونَ البِلَادِ فَسَقِيَا وَرَعِيَا لَهَا مِنْ بِلَادِ

ويستدل من شعر ابن عقيل أنه اضطر إلى مغادرة ديار الشام إلى مصر واتخاذها دار إقامة رداً من الزمن. ويبدو أن علاقة الشاعر بأبيه لم تكن مستقرة، وأن صلاته بأقاربه كان يشوبها بعض الكدر، وأنه لم يلق منهم ما كان يأمل فيه من احترام وتقدير، مما لم يمكنه من استمرار الإقامة بينهم، فأثر الهجرة إلى مصر لعله يتجنب مظنة الإساءة إلى أبيه وذويه من ناحية، وينتشل نفسه من غيابات الخمول من ناحية ثانية. وقد عبر ابن عقيل عن عدم رضاه عن موقف قومه منه في غير ما موضع من شعره، من ذلك قصيدة أرسلها من مصر إلى أخيه في بلاد الشام، وهي قصيدة دفاقة بالعاطفة ولا سيما حين يعرض الشاعر لذكر أبنائه الصغار الذين تركهم في بلاد الشام، راجياً أخاه أن يكفلهم ويعنى بهم لأنهم بمنزلة الأيتام في غيابه عنهم^(٧):

يَا أَخِي يَا جَبِيرُ نَاشِدَتُكَ اللِّسَ هِ أَتَنَدُ بِالعِيَالِ وَالأَطْفَالِ
وَاكَتَفَلْ بِالذِّينِ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ م وَلَمْ يَدْرِكُوا حُدُودَ الرِّجَالِ
هَبْكَ أَنِي قَدِ مَتَّ هَلْ لِعِيَالِي فِي جَمِيعِ الأَنَامِ غَيْرِكَ كَالِي

وتعمر ابن عقيل مشاعر الأنفة وهو يتحدث عن تألب قومه عليه، وعدم انزالهم إياه المنزلة التي تليق به:

هَلْ رَسُولٌ عَنِّي يَبْلُغُ قَوْمِي مِنْ عَقِيلِ أُولِي النِّهْيِ وَالفِعَالِ
أَنِّي غَيْرُ قَاطِنٍ فِي بِلَادِ لَا يِرَاعِي فِي مِثْلِهَا أُمَثَالِي

لستُ أسى على فراق بلادِ تلبسُ الهَرَّ بَزَّةَ الرِّبَالِ

ويتحدث الشاعر بأسى عن تبدل أبيه عليه وجفوته لأبنائه:

وأبوك امرؤٌ عليه فراقِي هينٌ، وهو لا يودُّ عيالي
أمثلي يكون هجرٌ ويلقى يا ابن أُمي يوماً بوجه مُذالِ

وقد ظل ابن عقيل مدة إقامته في مصر جواباً على أبواب أولي الأمر من ملوك بني أيوب ووزرائهم وغيرهم من زعماء الصعيد، متكلفاً جهامة الغربية، أملاً في أن يكتسب بشعره مكانة عند ممدوحيه. وقد تحقق له شيء من هذا الأمل عندما أدناه الملك المعظم عيسى إليه، غير أن بعض المصريين ربما لم يكونوا راضين عن الشاعر، فاستطار الهجاء بينه وبين بعض شعرائهم، كما سنرى فيما يستقبل من هذه الدراسة، مما جعل بعض أصدقائه يسدي إليه النصيحة بأن يغادر مصر، ويعود إلى أهله ودياره، وفي ذلك يقول ابن عقيل^(٨):

وقائل خَلَّ مصرًا والثَّوَاءَ بها فيم المقام ولا أهل ولا وليدُ
وقد تعطلت من أشياء، قلتُ له: ما ضرَّ عطلتَ جيدَ زاتِه الجيدُ
تالله لا رمتَ عن مصرٍ ولا وخذتَ إلى سواها برحلي عرمسٌ أجدُ

ومع أن الأبيات السابقة تصور تشبث ابن عقيل بالإقامة في مصر، فإن مشاعر الحنين كانت تلج به، فيفقد صلابته التي كثيراً ما تظاهر بها، فتجري على لسانه أبيات الشوق، كما في الأبيات التالية التي قالها سنة ٦٠٨ هـ^(٩):

معاهد لهوي بأرض السَّوادِ سُقيتُ أفباويقَ درَّ العهدِ
وحياً ربوعك صوبَ الحيا بغيتُ يغاتٍ به كلَّ صادي
ليالي بها من خيول الصبا أروض إلى اللهو صعب القيادِ

وكفَّ الرّجاءِ جناها المنى ودوح الرضا مثمر بالوداد

وليس من اليسير تعيين السنة التي غادر فيها ابن عقيل بلاد الشام إلى مصر، أو تحديد الفترة التي قضاها في مصر تحديداً دقيقاً، بيد أنه يمكن الاستئناس بتواريخ بعض القصائد لرسم إطار تقريبي للفترة التي قضاها الشاعر في مصر. فأول قصيدة وصلت إلينا، مما قاله في مصر، مؤرخة سنة ٦٠٦هـ^(١٠)، وقد تلاها عدد من القصائد مؤرخة بالسنوات ٦٠٧ و ٦٠٨ و ٦٠٩ و ٦١٠^(١١). وربما يصح لنا أن نقول اعتماداً على هذه التواريخ لعل الشاعر كان في مصر في الفترة التي تقع بين سنة ٦٠٦هـ وسنة ٦١٠هـ.

ويستشف من شعر ابن عقيل أنه تلا هذه الفترة التي استقر فيها في مصر فترة من التنقل بين مصر والشام؛ إما ملازماً الملك المعظم عيسى في جهاده وأسفاره، وإما منتجاً ملوك بني أيوب وغيرهم من الأمراء متكبساً بشعره. ولعل هذه الفترة امتدت من سنة ٦١١هـ إلى سنة ٦١٧هـ تقريباً؛ ففي سنة ٦١١هـ أنشد الملك المعظم عيسى قصيدة هنا فيها بفتح حصن صرخد^(١٢)، وفي سنة ٦١٢هـ بعث من ظاهر بيت جبرين قصيدة إلى الخليفة العباسي ببغداد مادحاً^(١٣)، وفي سنة ٦١٣هـ مدح صاحب صفد بعدة قصائد^(١٤)، ومدح في السنة نفسها متولي الطور، كما هنا بالعيد سنة ٦١٤هـ^(١٥)، وفي سنة ٦١٥هـ مدح أحد الأمراء بظاهر دمياط^(١٦)، وفي سنة ٦١٦هـ مدح الملك المعظم في بانياس^(١٧)، وفي سنة ٦١٧هـ أرسل من دمياط قصيدة إلى الملك الأشرف شاه أرمن يستحثه على الجهاد، ويصف ما أصاب المدينة على أيدي الفرنجة^(١٨).

ولم يرد فيما وصل إلينا من شعر ابن عقيل قصائد مؤرخة بسنة ٦١٨هـ، غير أنه يلاحظ له نشاط شعري واسع في سنة ٦١٩هـ، وقد كان هذا النشاط في شمال بلاد الشام والجزيرة^(١٩)، ولعل هذا يشير إلى أن الشاعر كان في تلك الأثناء سنة ٦١٩هـ.

وليس في شعر ابن عقيل قصائد قالها سنة ٦٢٠هـ، وربما لم تصل إلينا. وفي سنة ٦٢١هـ قال - وهو في الجزيرة - بضعة أبيات يصف فيها مطراً وبرداً^(٢٠). وفي سنة ٦٢٢هـ أو ٦٢٣هـ توفي ابن عقيل بدمشق، ودفن بمقابر باب الصغير^(٢١).

والسياق العام لشعر ابن عقيل يدل على أنه شاعر جوال متكسب، وأنه ظن أن الشعر هو مفتاح الرزق، لذلك ظل يوالي التنقل على أبواب أولي الأمر يستجديهم بمدائحهم، راجياً أن ينتشلوه من وهدة الفقر والحاجة، كما في قوله مخاطباً الملك الكامل^(٢١).

يا ناصر الدين الذي أمامه لا يشتكي العافي بها الإقلال
واقى إليك العامري تقوده الـ آمال يا من ينجح الأمالا
أو هل يجوز لشاعر مثلي يرى لسواك من هذا الورى تسالا

ويتخذ ابن عقيل التذلل وسيلة للاستشفاع، فيستكثر ذكر حاجته، وحاجة أبنائه الصغار، وغريبه عنهم كما في قوله مخاطباً الخليفة العباسي^(٢٢):

من مبلغ عني وإن بعد المدى مني أمير المؤمنين سلامي
فقري وعائلتي يعوقاني معاً من أن أسير إلى المقام السامي

وتولد لدى الشاعر عن هذا التنقل المصحوب بالسؤال إحساس بعدم الطمأنينة، فبدأ في شعره إنساناً قلقاً لا يستشعر لحظة من أمن أو سكينة؛ لذا ألح في شعره على حاجته إلى الملاذ الأمن والممدوح الذي يوفر له حظاً من الاستقرار، كما في قوله وقد استقر به المهاد في ظلال الملك المعظيم عيسى^(٢٤):

أرحت عيس رجائي مذ وقفت بها لدن جنابك من أين ومن تعيب
هذا مقام أمان لا يخاف به أجر به خائفاً من دهره الأشيب

ولكن الشاعر لا يلبث أن يقع في صراع مرير بين حاجته وبين اعتزازه
بنفسه وإحساسه بكرامته، فتتد عنه بعض الأبيات التي تصور معاناته النفسية
وهو يقف على أبواب الممدوحين، كما في قوله مخاطباً الملك الكامل^(٢٥):

فصن بقايا ماء وجهي فلقن أرقن منه بالسؤال ما كفى

ويبدو هذا الصراع أكثر وضوحاً عندما يقترن بافتخار الشاعر بنفسه،
وحديثه عن وحدته، وغربته، وقسوة الدهر عليه^(٢٦):

متى قرب الدهر لي واحداً رماني الزمان بسهم البعاد
وذلك أنني أهول الزمان بمجدي فما يأتلي في عنادي
علمت به واغتندي جاهلاً لطارف مكرمتي والتلاد
فأفردني يبتغي شقوتي وإن نعيمي في الانفراد
أنيسي كتابي في وحدتي وعزم وعضب طويل النجاد

لذلك حث الشاعر نفسه على التجل بالصبير أملاً في انجلاء عتمة
الليل^(٢٧):

تصبر إن عقبى البؤس نعي فإحوال الليالي تستحيل
فما يجلو ظلامهم إلا ضياء العزم والرأي الأصيل

وإذا بحثنا في شعر ابن عقيل عن تصور فلسفة في الحياة أو نظرة شمولية
لها فإننا لا نظفر إلا بأبيات حكمية، مستمدة من التجربة تصور نظرة غير
راضية عن الحياة والأحياء، على شاكلة قوله^(٢٨):

والدَّهْرُ إِنْ وَهَبَ اسْتَرَدَّ وَإِنْ شَفَى أودى وإن صان الوجوه أذالا
لا الناس تصدقهم ولا الطمیع الذي جبلوا عليه ينجح الأمالا
والحر يهدمه الملام كمثلما باللوم يزداد اللئيم ضلالا

وهذه النظرة غير الرأضية قد تستحيل في سياق آخر دعوة إلى اهتبال
الفرص للاستمتاع بملاذ الحياة، والاستغراق في اللهو لتتاسي الهموم^(٢٩):

فاشرب وجفن الحادثات نائم والعيش غص والزمان غسر
وصرف الهم بصرف شربها به يلذ العيش وهو مر

ديوانه:

لابن عقيل الزرعي ديوان كتبه بخط يده، ولكن هذا الديوان لم يصل إلينا
كاملاً، وإنما وصلنا مختار منه يقع في تسع وتسعين ورقة. وقد اختاره لنفسه
محمد بن محمد بن شرف الزرعي سنة ٧٤٨هـ، وذكر أنه حذف من الديوان
الأصلي نحو ألف وخمسة بيت. ويوجد من هذا المختار نسخة خطية واحدة
محفوظة في (طوبقوسراي) بتركيا^(٣٠)، وعن هذه النسخة يوجد شريط مصور
في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

ويضم المختار من ديوان ابن عقيل الزرعي ثلاثاً وتسعين قصيدة
ومقطوعة، غير أن الذي اختار الديوان لم يورد القصائد كلها كاملة وإنما كان
يجتزئ من بعضها ما يناسب ذوقه، ومع ذلك فإن هذه القصائد المختارة تدل
على المجالات الكبرى لشعر ابن عقيل وتصور سماته الفنية وسأدرس هذه
القصائد ضمن إطارين كبيرين هما:

- الأغراض الشعرية.

- السمات الفنية.

أولاً: الأغراض الشعرية:

١- المدح: استغرق المدح قدراً كبيراً من الجهود الفنية لابن عقيل الزرعي. وقد سبق أن أشرنا إلى أن شاعرنا هذا قد لازم حضرة الملك المعظم عيسى وأن له فيه مدائح كثيرة، غير أن ذلك لم يكن ليمنعه من مدح آخرين. وبعد مراجعة المختار من ديوانه تبين أن عدد القصائد التي قالها في الملك المعظم تسع عشرة قصيدة، وكانت بقية مدائحه موزعة على عدد آخر من حكام العصر معظمهم من ملوك بني أيوب، مثل الملك العادل والملك الكامل والملك الأحمدي بهرام شاه والملك العزيز عثمان. وبالإضافة إلى هؤلاء مدح ابن عقيل الخليفة العباسي بقصيدة أرسلها إليه سنة ٦١٢هـ، كما مدح عدداً من الوزراء والعمال وزعماء القبائل في مصر والشام.

وقصيدة المدح عند ابن عقيل تترسم خطاً قصيدة المدح العربية بتقاليدها المعروفة ولا تكاد تحيد عنها. وكان الشاعر كان يضع أمام عينيه نموذجاً لمثل أعلى ويورد لمدوحه من الصفات ما يخيل به للسامعين أنه كذلك، أخذاً بعين الاعتبار أمرين اثنين: أن يوائم بين الممدوح والصفات التي تخلص عليه، وأن يبرز صفة أو صفات مميزة في ممدوح دون آخر، فهذا شجاع. وذلك كريم، وذلك عادل... وقد تجمع هذه الصفات في سياق واحد معاً مع تحدٍ للواقع. وسأكتفي بعرض نموذج واحد على هذا النهج التقليدي في المدح، وليكن هذا النموذج قصيدة في الملك الكامل، ومطلعها^(٣١):

إن سلَّ سيفُ الهجر من غمد الجفا فأذرع الصبر الجميل والوفا

تغزل الشاعر فيها بخمسة وعشرين بيتاً، ثم تخلص إلى المدح بثلاثة أبيات، ثم جاء المدح في (٦٧) بيتاً. وقد شكى الشاعر في أبياته الغزلية من صدود حبيبته عنه، وهجره له، وحث نفسه على التجميل بالصبر. ثم يخلص من هذه الشكوى إلى وصف جمال هذا الحبيب، فيطيل في ذلك. ولم أتبين الغاية التي كان

يرمي إليها الشاعر من هذا الغزل، ولا الأجواء النفسية التي أراد أن ينشرها وأغلب الظن أن لا غاية للشاعر إلا إظهار البراعة في وصف المحاسن، لذلك نجده يستطرد ويتفنن في هذا الوصف، كما في قوله:

أقام من أصدائه عقارباً تحرسه من لحظنا أن تُطفأ
ما أنكرت أبقائه سفك دمي إلا أتاني حده معترفا
خد به جمر من الحسّن طفا من فوقه ماء الحيا وما انطفا
كأن في فيه ليدى ابتسامه برقا أضواء أو جمائاً ألقا
يصلى بنيران الصدود من ثوى عليه في دين الهوى معتكفا

وعلى الرغم من هذه النيران فإن الشاعر سيظل مقيماً على هذا الحب ولن يطلب من دونه منقلبا، تماماً كما سيظل مقيماً في حضرة الملك الكامل ولن يبغى من دونه مصرفاً. وهنا يتخلص الشاعر من الغزل إلى المدح تخلصاً جميلاً، ويغدو في مواجهة ممدوحه، ويأخذ في الثناء عليه، فيختار له من الصفات ما يليق بالملوك، فينوه بعده، وشدة بأسه، وذكاء قلبه، وقوة دولته، وكرمه الذي لا تداخله منة ولا يفسده أذى:

ليث من استكفاه في خطب كفى غيث إذا شيم لجذب وكفى
ورد الندى من راحته بالجدى من كدر المنة والمطل صفا
أظهر آيات سماح أرخت بمعجز المعروف منها صحفا

ويجنح ابن عقيل إلى المبالغة في تقيظه للملك الكامل، وهي مبالغة مردّها محاولة الشاعر أن يأتي بالجديد، كما في قوله:

تكاد من سطوته الأنجم أن تسقط والأرضون أن ترتجفا
لو أمر النهار والليل بأن يتفقا طول المدى ما اختلفا
والبحر يوماً لم يمّج والنار لم تحرق أو الريح أبت أن تعصفا

و حين يتحدّث الشاعر عن زيادة النيل وحضور السلطان بالمقياس تستدعي كلمة (النيل) الحديث عن نيل الممدوح وكرمه، فيقول:

نَيْلِكَ يَسْتَعْلِي عَلَى النَّيْلِ إِذَا مَا النَّيْلُ فِي الْمَدِّ تَهَاوَى وَطَفَا

والأمر الذي يستوقف القارئ في هذه القصيدة حديث الشاعر عن (حُسن) الممدوح، وربطه بـ (يوسف) عليه السلام، ولا سيما أن هذا الربط مما شاع في الغزل بالمذكر آنذاك. ولعل هذا يشير إلى تبدل في بعض المثل والقيم.

وإذا أعدنا النظر في القصيدة فإننا نلاحظ أن الشاعر لم يأت فيها بشيء جديد فيما يتعلّق ببنائها ومضمونها؛ فالنسيب الذي جاء في مقدمتها تقليدي، والصفات التي خلعتها الشاعر على ممدوحه كانت في مجملها مما اعتاد الشعراء ذكره. غير أنه لا بد أن نقرر أن النفس الشعري الذي كان يبثه ابن عقيل في قصيدة مدحية قد يختلف - أحياناً - عنه في قصيدة أخرى، ومن ثم فإن بعض مدائح ابن عقيل وإن تشبّث بالشكل التقليدي فإن الشاعر كان يتصرف بأدوات هذا الشكل بحيث ينأى به عن التقليد الذي يلغي شخصيته الفنية من ناحية، ويقطع القصيدة عن مناسبتها من ناحية ثانية. وسأضرب مثلاً واحداً أوضح به ذلك، وهو قصيدته التي قالها يمدح أحد زعماء القبائل العربية في (قوص) ويودعه سنة ٦٠٨ هـ، ومطلعها (٣١):

أرْبَعُ وَسَلُّ عَسْنِ آلِ سَلْمَى الْمَرْبَعَا وَأَجْزَعُ فَحَقُّ لَذِي الْهَوَى أَنْ يَجْزَعَا

وقد تغزل ابن عقيل في مقدمة قصيدته بفتاة بدوية من بني عامر، ومما قاله فيها:

أَوْ بَعْدُ بَعْدِ الْعَامِرِيَّةِ تَبْتَغِي صَبْرًا وَتَذْخُرُ لِلنَّوَانِبِ أَدْمَعَا

كلا وقلبك يوم ودّع أهلها للجسم من شغفٍ عليها ودّعا

ابن عقيل يمدح زعم قبيلة عربية، وهو يودع هذا الممدوح، ومن ثم أشاع في مقدمة قصيدته أجواء بدوية، فذكر سلمى وربيعها، والعامرية ورحلها، وصور جزعه لفراقها، وحزنه لابتعادها. ولعل الشاعر أراد أن يبسط أمام هذا الممدوح الذي يسكن البادية أجواء ألفها. كما أن المعاني التي وردت في هذا الغزل (وهي تدور حول الوداع والرحيل والبعد) تتسجم ومناسبة القصيدة، وكأن ابن عقيل يشير بذلك إلى فراقه لممدوحه، وتوديعه له، وما يستثيره ذلك في قلبه من مواجد وأشواق.

وقد واءم ابن عقيل بين الممدوح والصفات التي خلعها عليه موأمة دقيقة، فمدحه باعتباره زعيم قبيلة، إذ قرنه بالمثل الأعلى للكرم عند الإنسان العربي (حاتم)، وأثنى على الدور الذي نهض به في تأثيل أمجاد قبيلته ومفاخرها، وشكر له ولقبيلته حسن الضيافة وكرم الوفادة:

أثنت مجد بني الفضيل ومجدهم يعلو على النجم المحلّ الأرفعا
طالت بمجدهم قضاة واغتدى روض المناقب في بلي ممرعا
جاورتهم زمن المصيف فلم تزل في نعمة حتى قضيت المربعا

أما خاتمة القصيدة فهي شكوى من الأيام التي قضت بالرحيل وحكمت بالفراق، وعهد من الشاعر أن يظل وفياً لممدوحه، ذاكراً له، دائم الثناء عليه:

إن ترضني الأيام باللقيا فقد أغضبتني لما أتيت مودّعا
أشكو إلى الله التباعد عنك من بعد الذنو لعلها أن تنفعا
والله لا زال المديح مؤبداً مني، ولا كان الجميل مضيعاً

ولم يَصف ابن عقيل في هذه القصيدة إلى طبيعة الموضوع الشعري أي جديد، ولكن الجديد هو تصرف الشاعر بأدوات المدح على نحو كفل له الإجابة، فقد بعث في القصيدة لونا من الشعور ينبثق من مناسبتها، وقد لون هذا الشعور مقدمة القصيدة وموضوعها وخاتمتها.

وترتبط قصيدة المدح عند ابن عقيل الزرعي - كغيره من شعراء عصره - بأحداث الصراع بين المسلمين والفرنجة، ومن ثم فإن بعض هذه القصائد يتنفس في جو ديني، ولا سيما حين يستعير الشاعر الألفاظ المتعلقة بعقيدة الطرفين المتصارعين، كما في قوله من قصيدة يذكر هزيمة الإفرنج في دمياط سنة ٦١٦هـ (٣٣):

نكستَ صليبا لهم من بعد ما رفعتَ إن الصليب بحمد الله مكسورُ
وقابل الإفك والتثليث إذ كفروا لديك للحق تهليل وتكبيرُ
وما تلا النصر من آياته سورا إلا ودلتْ لدهن التّصاويرُ

وتغدو المعاني الدينية أكثر وضوحاً حين يستجيش الشاعر المشاعر الإسلامية، ويحث على الوحدة لمواجهة الخطر الداهم، كما في قوله مخاطباً الملك الأشرف شاه أرمن، ويستعجله أن يرسل جيوشه إلى أخيه في مصر (٣٤):

ناداك عيسى فاستجب لدعائه أسعفه أنت اليوم أفضل مُسَعَفِ
فلو أنك الداعيه لبي مسرعاً بالمشرقية والرماح الرعافِ
دمياط مصر، ومصر أرمينية والخصم أنت، وقد حكمت فأنصفِ
كم مسجد بالثغر أضحى بيعة يتلى بها الإنجيل بعد المصحفِ
ومنابر أضحت صوامع مشرك بالله بعد مؤذن متحنسِفِ
رفعوا بها القُداس بعد تلاوة وتبدلت بعد الخطيب بأسقفِ

ويضفي ابن عقيل على قصائده غلالة من الفرح والاستبشار حين ينظر

من خلال عزيمة ومدوحه وانتصاراته إلى المستقبل بثقة وأمل، فيرى أن فتح البلاد التي يسيطر عليها الغزاة بات وشيكاً، كما في قوله يخاطب الملك المعظم (٣٥).

فَلتَفْتَحُنْ صُوراً وَعَكَّةَ عَنُوءَ ولتَهْزِمَنَّ الكُفْرَ وَهُوَ رَعَالُ
ولينظرن بلاد أنطاكية وله على أطلالها أطلالُ
وليحكمن السيف في فرسانها حكماً به المغبون ليس يُقالُ
فانهض لتفتتح البلاد بعزيمة حذاء ليس تهولها الأهوالُ

٢- الغزل: لم يفرد ابن عقيل الزراعي فيما وصل إلينا من شعره قصيدة خالصة للغزل، وكل غزلياته التي بين أيدينا جاءت في مقدمات قصائده. وهذا الغزل ليس نسبياً بامرأة معينة، وإنما هو أشواق مبهمة وحنين إلى الجمال العربي، ونفحات وجدانية تقترب من غزل العذريين، كما في الأبيات التالية التي يركز فيها على الحنين بذكر نجد (٣٦):

أعدْ ذَكَرَ نَجْدٍ وَالْمَقِيمِينَ فِي نَجْدٍ فلولاً هوى نجدٍ صحوّت من الوجدِ
فإن صبأ نجد يهيج صبابتي إذا هاج رياماً عن البان والرندِ
وليس حنيني للديار وإنما حنيني إلى عيش مضى لي بها رغدِ
سقى الله أيام الصبا وعهودها ومعهد هند باللوى صيب العهدِ

ويحاكي ابن عقيل في هذا الغزل طريقة العرب الأوائل محتدياً نهج الديلمي والشريف الرضي، فتحس أن نفسه ترف بوجد غانم على شاكلة هذا الوجد الذي تسري فيه روح بدوية: (٣٧)

شجاء في الأيك الحمام إذ شدا فأتهم الشوق به إذ أنجدا
أذكرني ميأ وأيام اللوى والدهر لسم يمدد إلى اليبين يدا
أيام لا أصغني إلى معنسف ولا أطيع في الهوى مفندا

أذهلني البين الذي ولهنسي فأوهن القلب وأوهى الجسدا

وحتى يحقق ابن عقيل لشعره ما يريد من سمات بدوية فإنه يعمد إلى وصف ظعانن المحبوبة، وتصوير مشاهد ارتحالها، معبراً عما يمور في صدره من عواطف ومشاعر، وما يشتعل في قلبه من أحزان ومواجذ^(٣٨)، كما يقف على ديار المحبوبة بعد رحيلها، فيصف ما فعلته بها الأيام، ويعرض لأثارها الباقية دون تفصيل، مسترجعاً ذكرياته الجميلة فيها، وما تستثيره هذه الذكريات في نفسه من أشجان، كما في قوله^(٣٩):

عرف الغرام وأنكر الأطلالا
لما توسم من سمية معهدا
لعبت به أيدي الخطوب وناوحت
جرت عليه ذبولها ولطالما
فتوحشت بعد الأتيس عراضه
كانت محلاً للأحبة قبل ما
إذ لم تجب عند الخطاب سؤالا
غفت العهد مطهه أحوالا
فيه الصبا عند الهبوب شمالا
جرت به البيض الدمى أذبالا
والدهر يعقب بعد حال حالاً
يقصي التفرق أهلها الحلالاً

وإذا ما تمعنا غزل ابن عقيل وجدنا أنه يطيل الحديث فيه عن البعد، والهجر، والفراق، والرحيل، إلى غير ذلك من المعاني التي تتصل بتغير الأحوال وتبدل الأحبة. ولعل ذلك بتأثير من نزوح الشاعر عن وطنه، وتبدل قومه عليه؛ لذا فإن هذا الغزل يقترن بالحنين والاشتياق والشكوى والدعوى إلى التجميل بالصبر على تقلبات الدهر^(٤٠):

لولا التعلل أن الشمل يجتمع
وكيف يطمع قلبي بالبقاء وفي
جزعت للبعد يوم البين بعدكم
أنكى فؤادي هوى أبكى الجفون دماً
لكاد قلبي لوشك البين ينصدع
حكم الوفا ماله في سلوة طمع
واقفة العاشقين البين والجزع
وشاب للهجر فودي والهوى يفع

كيف الخلاصُ لصبٍ من صيابتِه أنصاره الشَّقوق والبلوى له شَيْخُ
طيف الكرى خُلسٌ في مقلتيه كما سروره مذنأى أحبابه لمع
ما زال يسفح ذكرُ السفح عبْرته ويعتريه لذكرى جزعه الجزع
خفض همومك لا المحتوم منصرف إذا حذرت ولا ما فات يرتجع

وإذا ما انتقل الشاعر للحديث عن جمال المرأة فإن المحاسن التي تغنى بها
لا تخرج عن المقاييس الجمالية التي ذكرها الشعراء السابقون، إذ نراه يترسم
خطاهم، ويحاكي أطهرهم التي رسموا من خلالها جمال المرأة ومحاسنها، كما في
قوله متغزلاً بإحدى الحسان واصفاً امتلاء ردفها، وحسن شفيتها، وتأود قامتها،
وفتك نظراتها، وإشراق وجهها، وسواد شعرها، واتساق أسنانها، وعذوبة
ريقها(٤١):

وبمهجتي رِيَا الرَوادف طفلة لعساء لمياء المراشِف رُوْدُ
سمراء كالسِّمراء، في أجفانها بيضُ صياقلها العيون السُّودُ
صنمٌ من الحسنِ البديعِ جماله في دينٍ متَّبِعِ الهوى معبُودُ
فمن الغزاة حسنها وضيؤها ومن الغزال ذفاره والجيدُ
فالوجه صبَّحُ والذوائبُ غيَّهَبُ والثَّغرُ درٌّ، والرضابُ بِرودُ

ولا تكاد الصور التالية التي رسمها ابن عقيل لإحدى الجميلات تختلف عن
الصور التي رسمها في الأبيات السابقة إلا في طريقة التعبير(٤٢):

إن أسفرت حكت الغزاة بهجةً أو أتلت مثلت لديك غزالا
وإذا رنت بعثت إليك لحاظها عن قوس حاجبها الأرج نبالا
تاھت على مئد الغصون بقدهما هيفاً، وأخجلت البدور كمالا

وثمة نمط آخر من الغزل في شعر ابن عقيل الزرعي هو الغزل بالمذكر

وأغلب الظن أن هذا الغزل جاء مجازاة لذوق العصر الذي كثر فيه التغزل بالولدان الأتراك، ولعل ذلك يدل على تبدل في الذوق الجمالي في بلاد الشام في تلك الفترة. ومع ذلك فإن الصفات الجمالية التي أوردها ابن عقيل وهو يتغنى بالجمال المذكور لا تكاد تخرج عما هو مألوف في التغزل بالمرأة، كما في الأبيات التالية التي يصف فيها أحد الغلمان الأتراك، مصوراً رقة جسمه، وحمرة خده، ولين قامته، وحسن وجهه؛ فجمع بذلك كله آيات الجمال المعجزة^(٤٣):

وأُسْمِرُ من بني الأتراك قد تركت صفاته عاشقيه في الوري سمرا
أطعته فعصى، لاطفته فجفا أدنيته فتأى، واصلته هجرا
يكاد من رقة بالفكر تجرحه وبالعيون ترى في جسمه أثرا
الله أظهر آيات الجمال بسبه ومعجز الحسَن لا يخفى إذا ظهرا
فالماء والنار في خديه قد جمعا كثغره جمع الياقوت والدررا
إذا تنثى أرانسي قد غصنا وإن تجلى أرانسي وجهه قمرا

ولعل الأمر الطريف في غزل ابن عقيل بالمذكر أنه كان يشحنه بالدموع والذلة، مضافاً عليه مسحة عذرية في التعبير والتصوير، كما في الأبيات التالية التي حاكى فيها أساليب العذريين، واستعار تعابيرهم وصورهم شاكياً هجر الحبيب، مصوراً تذله له، ومعاناته من صده، وإخلاصه في حبه، واصفاً نفسه بأنه "العاشق العذري" و "أنه بعث نبياً للمحبة"^(٤٤):

إلام أعنى في الهوى وأعنف وحتام يجفو لي الحبيب وأعطف
وأخفي الأسى والدمع بيدي خفيه وأنكره والسقم عنه يعرف
ولا ذنب لي في الحب إلا تذلي لعزة محبوب يجور وأنصف
عدمت اصطباري في هواه فلم أجد سوى الوجد عوناً لي على الحب يسعف
أنا العاشق العذري عهداً وشيمة وغيري دعوى العشق عنه تكلف
بعثت نبياً للمحبة داعياً إلى الحب عنها من يصد ويصدف
فمعجز آياتي خضوعي وذلتني وصيري وأنصاري الأسى والتأسف

يَتِيمَنِي وَالغَيِّ رَشْدٌ لَذِي الْهُوَى عِذَارٌ مُوشَى، لَا بِنَانَ مَطْرَفُ

٣- الرثاء:

يبدو أن (الموت) لم يكن من الموضوعات الأثيرة لدى ابن عقيل الزرعي، فلم يرد في المختار من ديوانه إلا قصيدتان من شعر الرثاء؛ الأولى قالها في رثاء والده، والثانية قالها في رثاء بلاد حوران بعد أن اجتاحتها الفرنجة سنة ٦١٤ هـ. أما القصيدة الأولى فقد استهلها باستشعار روح الحكمة المستمدة من الموت، والتسليم لحكم الله وقضائه النافذ^(٤٥):

إِن الْمَنُونُ قَضَاؤُهَا مَحْتَبُومٌ وَالْمَوْتُ فِيمَا يَقْتَضِيهِ زَعِيمٌ
وَاللَّهُ يَحْكُمُ بِالْفَنَاءِ لَخَلْقِهِ فَلَهُ الْبَقَا وَلِحُكْمِهِ التَّسْلِيمُ
نَهَبَ الْقَضَا أَعْمَارَنَا بِصُرُوفِهِ الْمُسْتَيْقِظَاتِ وَدَأْبُنَا التَّهْوِيمُ

وتغمر الشاعر روح تشاؤمية وهو ينظر إلى ظواهر الحياة التي تخضع لقانون التحول والتغير، فيرى أن كل ظاهرة تحمل في حقيقتها ضدها ونقيضها:

فَالشَّهْدُ سَمٌّ، وَالْدُنُو تِبَاعِدٌ وَالْوَصْلُ هَجْرٌ، وَالنَّسِيمُ سَمُومٌ
فَسَحَابُهَا بِالنَّانِبَاتِ سَجُومٌ وَعِقَابُهَا بِالْقَارِعَاتِ تَحُومٌ
وَلَدَتْ لِنَقْتُلِ وَلَدَهَا بَعْقُوقُهَا يَا لَيْتَهَا قَبْلَ الْوِلَادِ عَقِيمٌ

ويصور الشاعر فجيعة أبيه، غير أن هذا التصوير لا ينقل لنا لوحة الفقد وعمق التأثر بفراق الأب، ويبدو أن استعجال الشاعر الحديث عن رضى والده عنه، ووفادته عليه وهو في مصر، ووفاته في أثناء تلك الوفادة قد صرفه عن استخراج مكامن الحزن الخفية، وجعله يستطرد في الحديث عن العلاقة بينه وبين أبيه:

لله رزنى في عقيل إنه رزء جليل ما علمت عظيم
واقيت مصر مهاجراً لزيارتي إن أخلفت زمن الجدوب غيوم
ورضيت عني بعد سخطك واصلاً مني عقوقاً شمله مصروم
وصفحت عن ذنبي وإجرامسي الذي أسديت، إذ أنا في الظلام أهيم
وقضيت نحبك صائماً متشهداً لتتال أجسر الله، وهو عظيم

ويذيل الشاعر قصيدته بأبيات يسلي فيها نفسه، فيقف في مواجهة المسوت
مفتخراً بأنه ابن لهذا الأب، وفرع له، واستمرار لوجوده:

أنا بدرُ ذاك النجم عند أقوليه أنا شبل ذاك الضيغم اللهمم
أنا فرعُ تبعته التي لنجارها في دوحه المجد الأثيل صميم

وأما القصيدة الثانية التي قالها ابن عقيل في الرثاء، فهي كما سبق أن
ذكرنا في رثاء بلاد حوران، وأرى أن تثبت القصيدة كاملة لقيمتها التاريخية
والفنية. فهي من الناحية التاريخية تتحدث عن اجتياح صليبي شامل امتد من بلاد
حوران إلى أقصى جنوب بلاد الشام، وهو اجتياح لم تتحدث عنه المصادر على
النحو الذي صوره ابن عقيل في القصيدة^(٤٦). وهي -أي القصيدة- من الناحية
الفنية تعد إضافة جديدة إلى شعر الرثاء البلداني الذي قيل في فسترة الحروف
الصليبية، إذ إن ما وصل إلينا من هذا الشعر كان قليلاً إذا ما قورن بالنكبات
الكبرى التي منيت بها البلاد الإسلامية^(٤٧). والقصيدة تجري على النحو
التالي^(٤٨):

جار الزمان على سكان حوراننا لا كان دهر قضى بالجور لا كانا
أخنى وخان وقد كان الوقي لهم لا غرو للدهر إن أخنى وإن خاننا
صاح الجلاء بهم صوتاً فما لبثوا أن جاوبوه جماعات^(٤٩) ووجداننا
فأصبحت دمناً تلك الربوع لهم وبدلت بعدهم يوماً وغرباننا

ظننت أن قراهم بعدما درست
ذهلت من أسف حين استقل بهم
واخجلت بعدهم إن لم أمت كمدأ
تفرقوا بالفلا أيدي سبأ فتبوي
وما استقلوا إلى أن قل صبرهم
إن الكريم إذا ما خاف في وطن
كانوا يجيرون من جور الزمان فقد
ليس الهودج أحداجا على إيل
الطالعات بدورا إن سفرن لنا
كان أظعنهم والال يرفعها
قالوا الغراب دعا في الحي فاحتملوا
لا تندب السدار إن أقوت ولا ظللا
وخل مية والخلصاء يندبها
وخل رامة يبكيها جريرو ودع
دع المعاهد فالأعراب أجدر أن
واندب قصور قرى حوران حين خلت
خوت عروش بها كانت مرفعة
شل الزمان يد المعروف بعدهم
كم بين بصرى إلى الرمثا إلى طفس
ولست أنسى حبالا والسراة وما
ويعد هذا أتى ما لا مرد له
أسرا وقتلا ونهيا حين أذكره
كم قرية كان في أكنافها نفر
شم الأنوف سراة سادة نجبا
من كل أبلج وضاح الجبين إذا
يقول من مات منا كان أسعدنا
ما ذات طوق على أيك الحمى صدحت

أطلال مي وأني كنت غيلانا
حادي العبور كأتي كنت سكرانا
مذ أزمعوا للتوى رجلا وركبانا
نجع بمصر ونجع حل حرانا
وكابدوا المحل في الأوطان أحيانا
ضيمًا تبدل بالأوطان أوطانا
أضحوا من الجور في الأمصار جيرانا
تلك الجنان حوت حورا وولدانا
والميسبات إذا أقبلن أغصانا
سفائن أشرعت أو نخل بيسانا
وما رأيت سوى الأحمال غريانا
ولا أوارى "أفراس" (٥٠) وأشطانا
غيلانها وذر "سعدى" (٥١) وحسانا
نصيب يندب حيا حل ودانا
تبكي النقا وربى نجد ونعمانا
وعوضت بعد سكنى الإنس جنانا
مجدأ، وجفت غسروس كن صنوانا
وهد من جبل العلياء أركاننا
من الخراب إلى ما حول نجرانا (٥٢)
أصاب ماب إلى ما حول عمانا (٥٣)
من الفرنج إلى غوري بيسانا
يهيج تذكاره للقلب أحزاننا
يمشون نحو العلى شييا وشباننا
في السلم والحرب أجوادا وشجعانا
بلوته كان مطعاما ومطعاننا
وكل من عاش منا كان أشقانا
ترجع النوح في الأفنان أحنانا

أقصى الزمان لها إلفاً فهاج لها
كلا ولا مغزل يزعى لها رشاً
لها كناس من الأرطى على نثر
أناخ صرف المنايا فيه إذ غفلت
فاغثاله وقضاء الله ليس له
لها بغام شديد حين تذكره
يوماً بأوجع مني إذ وقفت على
تري يعود إلى الأوطان ساكنها
صبراً على الدهر إن أبكى العيون وإن
لا بد في الدهر من عسر وميسرة

فراقه والنوى همماً وأشجانا
بيطن وجرة رخص الظلف أمانا
في روضة أنبتت رنداً وحوذانا
سمعماً أهرت الشدقين غرثانا
رد، ولا رد للمقضي أن حاننا
إذا رأيت عينها في السرب غزلانا
تلك القرى وتذكرت الذي كانا
فأنظر الدارس الآيات عمرانا
أنكى القلوب وإن أخنى وإن خاننا
وأن ترى فيهما سوءاً وإحسانا

والقصيدة، كما هو واضح، تعبير عن الحزن الذاتي لابن عقيل على ما حل
بأهل حوران وغيرهم. وقد نوع الشاعر في أدواته الفنية للتعبير عن هذا الحزن؛
فهو في مستهل القصيدة ينحو منحى التعبير المباشر في تصوير انقلاب الزمن
وظلمه لسكان تلك الديار. ولم يكد الشاعر ينتهي من ذلك حتى ذهب يصور مسا
أصاب قرى حوران من خراب ودمار، معبراً عن ذهوله لمشاهد القوم وهم
يغادرون ربوعهم، ويجلون عن ديارهم:

صاح الجلاء بهم صوتاً فما لبثوا
فأصبحت دمناً تلك الربوع لهم
ذهلت من أسف حين استقل بهم
تفرقوا بالفلا أيدي سباً فتوى

أن جاوبوه جماعات ووجدانا
وبدلت بعدهم يوماً وغرباننا
حادي العبور كأنني كنت سكرانا
نجع بمصر، ونجع حل حراننا

ويمضي الشاعر في قصيدته فيصور معاناة المسلمين في الديار، ومكابدتهم
العدو والقحط مما دفعهم إلى النزوح عن ديارهم، وهنا يجد ابن عقيل
الفرصة مواتية لوصف مشاهد الارتحال، وطمعائن النساء المسلمات:

ليس الهودج أحداً على إيل تلك الجنان حوت حوراً وولدانا
الطالعات بدوراً إن سفرن لنا والمائسات إذا أقبلن أغصانا
كان أظعانهم والآل يرفعها سفائن أشرعت أو نخل بيساننا

والمتمعن في الأبيات السابقة يجد أن الشاعر قد أخل بالبناء الفني للقصيدة لأنه استعمل لغة الغزل وهو يتحدث عن المراكب التي تقل النساء المسلمات اللواتي غادرن ديارهن خوفاً من الأعداء. ولعل ابن عقيل كان يضع أمام نظره، وهو يصف النساء الراحلات، مشهد الظعن في القصيدة العربية القديمة، ويستمد منه معانيه وصوره. بل يمكن القول إن النموذج الشعري لبناء القصيدة العربية كان يوجه ابن عقيل، بوعي أو بغير وعي، وهو يبني مرثيته هذه، ومن ثم فإننا نرى الشاعر يستطرد في معرض تصويره أحزانه إلى ذكر الشعراء الذين شغلوا بهمومهم الذاتية، فوقفوا على الأطلال وندبوا ديار محبوباتهم، وهو مشغول بهموم (الجماعة) وندب (قصور قرى حوران):

لا تندب الدار إن أقوت ولا طلالاً ولا أوارى أفراس وأشطانا
دع المعاهد فالأعراب أجدر أن تبكي النقا وربى نجد ونعمانا
واندب قصور قرى حوران حين خلت وعضت بعد سكنى الإنس جنانا

وحين يتحدث ابن عقيل عن المساحة الواسعة التي شملها الاجتياح الصليبي يذكر أسماء العديد من المواضع الشامية في حوران وغيرها بلغة سردية تقريرية، فبدت أبياته لمحاكاتها الواقع وكأنها فقرة من كتاب تاريخ:

كم بين بصرى إلى الرمثا إلى طفس من الخراب إلى ما حول نجرانا
ولست أنسى جبالاً والسراة وما أصاب ماب إلى ما حول عمانا
وبعد هذا أتى ما لا مرد له من الفرنج إلى غوري بيساننا
أسراً وقتلاً ونهباً حين أذكره يهيج تذكاره للقلب أحزاننا

وبعد ذلك يأخذ الشاعر في تصوير أحزانه هذه فيقرنها بنوح حمامة أقصى الزمان إلفها، وبغام غزالة افترس وحش رشأها.

وهكذا، فقد كان هم ابن عقيل - وهو يعبر عن أحزانه تصوير الدمار الذي أصاب منطقة حوران وغيرها من البلاد المجاورة لها، وما ترتب على ذلك من هجرات جماعية لسكان تلك الديار. وقد كان من المتوقع أن يصعد ابن عقيل نغمة الخطاب، ويحث المسلمين على الجهاد ليوازن بهذا التصعيد حالة الانكسار والهبوط التي استعلنت في فاتحة القصيدة وفي أجزائها الأخرى، ولكنه لم يفعل وأثر أسلوباً آخر هو تمنى عودة المهجرين إلى ديارهم، والدعوة إلى التجميل بالصبر على نوائب الأيام:

تري يعودُ إلى الأوطان ساكنها فأنظر الدّارس الآيات عمراناً
صبراً على الدهر إن أبكى العيون وإن أنكى القلوب وإن أخنى وإن خاناً

٤ - الهجاء:

من الموضوعات التي طرقتها ابن عقيل في شعره الهجاء. وجل شعر الهجاء الذي تضمنته المختار من ديوانه كان مما قاله وهو في مصر، ولعل ذلك يشير إلى أن بعض الشعراء المصريين لم يرتاحوا إلى إقامته بينهم. ويبدو أن مساجلات هجائية قد دارت بينه وبين أحد الشعراء النحاة في مصر، فانبرى له الشاعر الزرعي يسفه عقله وشعره^(٥٤):

يا أديباً في الرأي غير حصيف وسخيفاً أتى بشعر سخيف
جاننا شعرك التقييل المعاني بارداً نظمه بوزن خفيف
ما انتقدنا ما قلت إلا وجدنا ه على نقده كثير الزيف
فلهذا كلامك الفاسد الصيب لغة ملغى لعليّة التصريف

وكان من الممكن أن تُفهم الأبيات السابقة على أنها مباحكة شاعر، لولا أبيات أخرى قالها ابن عقيل في المهجو نفسه اتهمه فيها في غيرته على محارمه، وقذف عرضه، وصور النقائص ممثلة فيه وفي نساء بيته^(٥٥).

وممن هجاهم ابن عقيل محمد الواسطي، وكان هذا تعرض له، فتصدى له الزرعي بقصيدة أفحش فيها، إذ حشد كثيراً من الصفات المزرية التي تحط من رجولة المهجو، وتطامن من كرامته، مستعملاً ألفاظاً فاحشة، وصوراً فاضحة تصور انحرافه وانحراف زوجه، أجتزئ منها ما يصلح إثباته^(٥٦):

قالوا الرقيع الراوية قد انتحى هجائي هجائيته
قلت لقد هاج علي من هجائي داهيته
الأسد لا يضره نباح الكلاب العاويته
كم شاعر نسا فرني قبلك يا ابن الزائيه
تركت أم رأسه عند النصال هاويته

والقصيدة طويلة استعار فيها ابن عقيل كثيراً من الألفاظ والتركيب القرآنية بعد أن يحرفها عن مواضعها ليضفي سمة الطرافة على هجائه (أعجاز نخل خاوية، قطوفها دانية، نار حامية، عين جارية...). كما تأثر ابن عقيل في هذه القصيدة أبياتاً في الهجاء قالها دعبل الخزاعي^(٥٧).

ويتعرض ابن عقيل لأحد القضاة في قوص، فيهجوه في غير ما مقطوعة هجاء لاذعاً، فيتناول عرضه وشرفه بعبارات صريحة، ويسخر من خلفته، وينزع عنه وعن قومه لباس الشرف والكرامة، وينسب إليهم صفات الخزي والعار، كما في قوله^(٥٨):

لأبي محمد بن كامل غايته في اللوم عنها العالمون تتكأب

قَرَدَ إِذَا اسْتَقْبَلَتْ صُورَةَ وَجْهِهِ وَإِذَا تَوَلَّى فَهُوَ ثَوْرٌ أَنْصَبُ
مِنْ نَسْلِ قَوْمٍ لَا يُنَالُ نَوَالَهُمْ حَتَّى (....) نَسِبَاؤُهُمْ أَوْ يُثَلَّبُوا
بِيعِ النَّيِّذِ لِبَاسِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ فِيهِ يَحْصُلُ أَكْلُهُمْ وَالْمَشْرَبُ
كَمْ قَدِ رَأَيْتُ بَدَارَهُمْ مَقْتُولَةً قَتَلُوا وَقَالُوا أَهْلَكْتَهَا الْعَقْرَبُ

ويهجو ابن عقيل خطيب أسوان، فيصور نفور الناس منه، وازورارهم عنه، وعدم رغبتهم في الاستماع إليه، دون أن يفوته -كعادته- أن يذم أخلاقه ويقرض عرضه، على شاكلة قوله (٥٩):

إِنْ عَيْسَى خَطِيبُ أَسْوَانَ أَضْحَى ضَدَّ عَيْسَى الْمَسِيحِ فِي الْمَعْجَزَاتِ
ذَلِكَ بَعْدَ الْمَمَاتِ يَحْيِي وَهَذَا الْـ (....) فِيهِ يَمُوتُ بَعْدَ الْحَيَاةِ
قَدْرُهُ لَا يَزَالُ فِي ذِكِّ وَالْـ قَرْنَ مِنْهُ أَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ

وجملة القول في هجاء ابن عقيل أنه هجاء مؤسس على الإفحاش والإقذاع، مما أبعدته عن حقيقة هذا الفن الذي يقوم على طائفة من الأصول الفنية.

أغراض أخرى: ومن الأغراض التي طرقها ابن عقيل في شعره وصف مجالس اللهو والشراب. ولعل وفادة هذا الشاعر على بعض الملوك والأمراء ومخالطته لهم قد أتاحت له الإلمام بمجالس اللهو التي كانوا يعقدونها؛ فقد استقضى الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر سنة ٦١٩ هـ أبياتاً يصف فيها مجلس اللهو الذي أقامه، وما قدم فيه من صنوف المتع (٦٠). وفي السنة نفسها قال الشاعر أبياتاً وصف فيها الاحتفالات التي أقيمت يوم النوروز، وذكر أنه أخذ فيها بنصيب وافر من اللهو، وأنه قضى ذلك اليوم في أحضان الطبيعة الجميلة مستمتعاً بسماع الأغاني والألحان العذبة، ومستغرقاً في شرب الخمرة المعتقة (٦١):

لِلَّهِ صَيْحَةٌ نُوْرُوزٌ أَخَذَتْ بِهَا أَوْفَى نَصِيبِ سُرُورٍ فِي نَصِيبِيْنَ

مَا جَنَّةُ الْخَلِيدِ إِلَّا دُونَ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْفَوَاكِهِ فِيهَا وَالرَّيَّاحِينَ
لِلَّهِ أَوْتَارُهُنَّ الْخُرْسُ نَاطِقَةٌ لَنَا بِأَحْسَنِ إِقْبَاعٍ وَتَلْحِينٍ
وَصَلَتْ فِيهَا غُبُوقِي بِالصَّبُوحِ عَلَى شِدْوِ الْقِيَانِ وَمِزْمَارِ ابْنِ صَفِيْنِ

ويتماجن ابن عقيل حين يصور في أبيات أخرى شغفه بحضور مجالس
اللهو وتهالكه عليها، واصفاً ما في تلك المجالس من قصف وعزف (٦٢):

قَسَمًا بِالْكَوَاعِبِ الْأَبْكَارِ وَعَزِيفِ الْقِيَانِ لِلْسَمَارِ
وَاعْتِبَاقِ الْمَدَامِ وَاللَّيْلِ دَاجٍ وَاصْطِبَاحِ النَّدْمَانِ بِالْأَسْمَارِ
وَاصْطِحَابِ الْمِزْمَارِ وَالسَّدَفِ وَهَنًا وَاصْطِخَابِ الْعِيدَانِ وَالْأَوْتَارِ
وَبَدُورِ السَّقَاةِ تَعْطِي النَّدَامِي مِثْلَ زُهْرِ النُّجُومِ شَمْسِ الْعِقَارِ
لَا أَيْعِ الصَّبَا وَلَا اللَّهُوَ وَالْغَمَّ فِي بِنْسِكِ وَعَصْمَةِ وَوَقَارِ

غير أن الشاعر في وصفه لمجالس الشراب يقف عند حدود المنظر
الخارجي ولا يصور ما تحدثه الخمر في النفس من سؤرة ونشوة وطرب،
ويكتفي بتصويرها وهي تجلي بالكؤوس، متحدثاً عن قدمها، واهتمام أرياب
الديانات بها. وهو في ذلك كله يستعير صور أبي نواس وتعابيرها، كما في قوله
مخاطباً نديمه أن يسقيه (٦٣):

يَا نَدِيمِي أَدِرْ عَلَى الشَّرْبِ رَاحًا شَرِبَهَا فِيهِ رَاحَةُ الْأَسْرَارِ
جَنْدَرِيَا تَجَلُّوْ ظِلَامَ الدِّيَاجِي حِينَ تَجَلِي بِسَطَاعِ الْأَنْسَوَارِ
تَعْتَرِي نَسْبَةً إِلَى صَيْدِنَايَا أَوْ صَرِيفِينَ يَا لَهُ مِنْ نَجَارِ
كُنْهَهَا لَا يَحْدُ حَسْبًا وَحَدْسًا جَلَّ مِنْ بَقَّةِ عَنِ الْأَفْكَارِ
عَظَمْتُهَا الْمَجُوسُ لَمَّا رَأَتْهَا وَهِيَ مَاءٌ كَالنَّارِ فِي الْأَسْتَعَارِ
وَهِيَ عِنْدَ الْقَدَّاسِ بَيْنَ النَّصَارِي وَزَرَ مَسَانِعَ مِنَ الْأَوْزَارِ
حَرَمَتْ فِي كِتَابِنَا وَأُحِلَّتْ فِي كِتَابِ الْقَسُوسِ وَالْأَحْبَارِ

وتبدو الروح النواسية أكثر وضوحاً في الأبيات التالية التي يستعير فيها بعض الصور والتعابير القرآنية في سياق دعوته إلى الانغماس في اللهو والاستغراق في المتعة، معبراً عن كلفه بالخمير وولعه باحتسائها، واصفاً صفاءها وكؤوسها وقدمها، مضيفاً عليها هالة من القداسة، وهو في ذلك كله -كأبي نواس- يفتح باب الرجاء، يأمل بعفو الله ورحمته^(٦٤):

أدر الكأس بكرةً وأصيلاً وأطع من هويت وأعص العذولا
 واجعل اللهو والخلاعة ديناً وتبتل إليهما تبتيلاً
 واتخذ من تحب إن كنت في ديب من الهوى صادقاً عليك وكيلاً
 واجل منها على الندامى عروساً ليس ترضى إلا الكرام بعولا
 في إناء كأنه جسم ماء فيه روح تخالها سلسبيلاً
 نورها يجعل الظلام نهاراً نارها بالمزاح تطفئ الغليلاً
 عاصرت آدمًا ونوحاً وإبراً هيسم والأنبياء جيلاً فجيلاً
 استقنيها فقد رأيت بعيني عند بعث الأجساد يوماً طويلاً
 أنا لولا حسن الرجاء توقع ست عذاباً يوم المعاد وبيلاً

وقد تأثر ابن عقيل الزرعي بالشعراء العلماء الذين نظموا قواعد العلوم شعراً، فعمل على محاكاتهم وتقليدهم. فقد تضمن ديوانه قصيدة تبلغ مئة بيت تشتمل على كثير من حوشي اللغة، ويبدو أن هدفه من نظمها كان إبراز معرفته بالغريب من ناحية، وإظهار قدرته على صياغة قواعد العلم شعراً من ناحية ثانية، ومن ثم استهلها بقوله^(٦٥):

أيا من عنده الفهم إذا ما ذكر العلم
 لئن بينت ما قد قل ست في شعري لك الحكم
 لدي القول والفعل وعندني النثر والنظم

أدلى المشكل الصعق ————— ب إذا ما عجز القدم

ثم يأخذ الشاعر في طرح الأسئلة المنظومة على شخص قد يكون وهمياً، سائلاً إياه أن يشرح الكلمات الصعبة التي ترد فيها.

ثانياً: السمات الفنية:

١ - بناء القصيدة:

تقوم القصيدة العربية في الموروث الشعري على طائفة من التقاليد الفنية، وقد أدت هذه التقاليد إلى تعدد الموضوعات التي كان يطرقها الشاعر القديم في قصيدته، ومن ثم فهم النقاد القدماء الوحدة في القصيدة على أنها وحدة تقوم على التكثر^(٦٦). وفي إطار هذا الفهم التقليدي لبناء القصيدة تحدث النقاد عما سموه (براعة الاستهلال) و (المخلص) و (الخاتمة)، إذ "الشاعر الحاذق من يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة، لأنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء"^(٦٧).

وقد أخذ ابن عقيل بهذه التقاليد الفنية في كثير من قصائده، إذ كانت تتألف من مقدمة وتخلص وموضوع وخاتمة، ويكفي أن تأخذ أي قصيدة لسترى هذا التكثر في الموضوعات. من ذلك قصيدته التي مطلعها^(٦٨):

أسرقت في عدل صبب القلب مكتتب شفاؤه في اللمى المعسول والشنب

وهي تقع في ٧٧ بيتاً؛ تغزل في ١٩ بيتاً، ووصف الخمر ومجلسها في ١٨ بيتاً، وتخلص إلى المدح في بيت واحد، وجعل للمدح والخاتمة ما تبقى من القصيدة.

غير أن هذا الشكل لم يكن قالباً جامداً يصب فيه ابن عقيل قصائده دون

روح، وإنما أفاض عليه - أحياناً - من نفسه، ولونه بمشاعره وانفعالاته (فإذا ضرب من العاطفة يذيع في القصيدة كلها، ويبدو في مقدمتها وموضوعها، ويغلب على بقية أجزائها)، ويحقق لها ضرباً من الوحدة والانسجام. من ذلك قصيدته التي بعثها من مصر إلى أخيه جبير يعاتبه على رحيله عنه، وهو في مصر، دون علمه، وهي مطلعها^(١٩):

زَعَمْتُ مَيِّ أَنْ قَلْبِي سَالٍ فَاشْمَأَزَّتْ لَزُخْرَفِ الْأَقْوَالِ

ومع أن القصيدة لم تتناول موضوعاً واحداً، إلا أنه يسري فيها تيار نفسي واحد هو العتاب الذي لا يخلو من حدة. وقد أملى هذا الشعور على ابن عقيل أن يتخير في كل جزء من قصيدته الصور والمعاني التي تعبر عن مكونات نفسه. فها هو ذا يستفتح القصيدة بنسيب حزين:

زَعَمْتُ مَيِّ أَنْ قَلْبِي سَالٍ فَاشْمَأَزَّتْ لَزُخْرَفِ الْأَقْوَالِ
عَجِباً لَابْنَةِ الْجَدِيمِي إِذْ لِمُ فَيْسِكَ تَعْصُ مَقَالَةَ الْعَذَالِ
أَعْرَضْتُ إِذْ رَأَيْتُكَ طُوعَ يَدَيْهَا فَتَصَدَّدْتُ لِلصَّدِّ بَعْدَ الْوَصَالِ
وَكَذَا الْغَانِيَاتُ كَالدَّهْرِ لَا تَبْقَى عَلَى حَالَةٍ مِنَ الْأَحْوَالِ

فابن عقيل يشكو في هذا النسيب هجر (مي) له وإعراضها عنه، وكيف أنها استمعت إلى قول العذال الذين أوهموها أنه سلا عنها وتغير عليها. وكان الشاعر يضمن هذا النسيب عتاباً لأخيه، وتعجبه من موقفه منه، لذلك أطلال فيه - أي النسيب - إطالة أتاحت له إفراغ مشاعره؛ فتحدث عن جمال هذه المحبوبة التي استهوته وملك قلبه مع أنه رجل حليم، حتى إذا ما استوثقت من حبه لها هجرته وتركته. لذلك نجد في نهاية هذا النسيب يثور في وجه (مي)، ويعلن لها أنه سينصرف عنها وعن أمثالها من الحسان، مبيناً لها أن الموت في ساحات الوغي أهون عليه مما تعرض له منها. وهنا نجد ابن عقيل يضيق بالتلميح وكنم

عواطفه، فينفجر بالحديث عن نفسه التي تآبى الإقامة بين قومه الذين لم يقدروه
حق قدره، معلناً أنه غير أسف على فراقهم، والابتعاد عنهم:

هل رسولٌ عنِّي يبلغ قومي من عقيل أولي النهي والفعال
أنني غير قاطن في بلاد لا يرعى في مثلها أمثالي
أنا ذاك الشهم الذي بفراق أهل الدار إن نأى لا يبالي

ويمضي ابن عقيل في قصيدته بنبرة صاعدة ضارباً لنفسه الأمثال ببعض
الرجال الذين أجبرتهم ظروفهم على مغادرة أهلهم وذويهم، ثم يعود فيوجه
الخطاب إلى بنيه مصوراً حبه لهم، وحنينه إليهم؛ فهو لم يرحل عنهم (عن قلى
أو ملال)، ولكنه رحل رحيل المضطر:

ما أبوكم كغيره يالف الضيم — أم، أبوكم ثبت على الأحوال
ذو جنان شهم إذا خامت الأقـ — ران، طلق اللسان عند النضال

أما حديثه لأخيه فهو عتاب يمازجه الأسى على موقف والده منه ومن
أبنائه:

يا أخي يا جبير ناشدتك اللـ — ه اتند بالعيال والأطفال
فأبوك أمروء عليه فراقمي هيئن وهو لا يود عيالي

وينتهي الشاعر قصيدته مصراً على أن يعيش بعيداً عن قومه، ساعياً وراء
تحقيق ذاته:

سوف أسعى والأمر والحكم للـ — ه معاً دائماً على كل حال

وهكذا فإن القصيدة تتشبه بالشكل التقليدي، إلا أن ابن عقيل صدر فيها عن تجربته الخاصة، واستخرج معانيها من داخل نفسه، وبث فيها لونا واحداً من الشعور انبثق انبثاقاً دقيقاً من هذه التجربة.

وواضح أن الشاعر لم يلج في الحديث عن موقف أخيه وقومه، وإنما اهتم بإبراز موقفه هو منهم، ورد فعله تجاههم، لذا كانت القصيدة تتحرك صعوداً على نحو يوازي الحالة النفسية للشاعر، ومن ثم لم يته قصيدته بالحديث عن آلامه وأحزانه، وإنما أنهاها بتصوير قوته وعزيمته، لأن هذه الآلام والأحزان ظهرت في فاتحة القصيدة.

وتم نمط آخر من القصائد كان الزرعي يلج فيه إلى الموضوع الرئيسي دون مقدمات، ويتمثل هذا النمط أكثر ما يتمثل في القصائد التي قيلت في أحداث الصراع بين المسلمين والفرنجة، وهذه القصائد تمتاز بوحدة الموضوع. من ذلك قصيدته التي قالها يمدح الملك المعظم عيسى ويهنئه بفتح حصن صرخد سنة ٦١١هـ، ومطلعها (٧٠):

أضاعت بك الأيام وابتهج الدهر وطال بك الإسلام وانخفض الكفر

والقصيدة ذات موضوع واحد تتشد إليه خيوطها جميعها، هو الثناء على البطل المسلم والتغني بقوة دولته والظفر الذي حققه. ومما كفل لهذه القصيدة الترابط والانسجام أن الشاعر أكثر من إيراد الصور التي تصف الأوضاع الجديدة للمسلمين في دولة الملك المعظم، وهنا نجد يقدم ضريبين من الصور: صوراً تمثل منعة الدولة وقوة جيوشها، وصوراً تمثل ارتياح المسلمين وفرحهم وابتهاجهم بذلك:

وأشرق الدنيا سناءً بوجهك السُّنيَّ وعزَّ العزُّ واقتخر الفخرُ
وأثنى عليك الله والدهرُ والسورى فكل له فيك المدائح والشكرُ
ودولتك الغراءُ أيامنا بها معظمة زهرٍ محجلةٍ غرُّ

مناقبُ لا يُحصي الخلائقُ بعضها وكيف يُعدُّ الرَّمْلُ أو يُحصِرُ القطرُ
حمى في ذراه الناس أو كاد يحتمي من الموت منهم كلُّ من لا له عُمُرُ

وحين يتحدث الشاعر عن قوة الجيوش الإسلامية فإنه يعتمد، كذلك، إلى
إيراد الصور التي تمثل قوة هذه الجيوش وضخامتها، تقابلها صور تمثل إقدام
هذه الجيوش على الحرب، وارتياحها إليها، وانتشاءها بها:

عجاج المذاكي كحلها وخلوقها النَّـمُ جَعُ وأصداء الدروع لها عطرُ
مقامهم الحرب الزبون ونقلهم رؤوس العوالي والدماء لهم خمُرُ
نشاوى بكأس العز تصهال خيلهم يرنحهم في الحرب لا العودُ والزمر

أما حديث الشاعر عن قوة الأعداء، ومنعة حصن صرخد فقد جاء في
سياق حديثه عن قوة المسلمين وتغنيه بها، ولما استوفى ابن عقيل ذلك خرج إلى
تمجيد القوة لينهي قصيدته:

وما جنحوا للسلام إلا لعلمهم بأن قصارى فعلك القتل والأسرُ
وما العز إلا متن أجرد سايج وهندية بتر وخطية سمرُ

وإذا كان ابن عقيل كفل لمبنى بعض قصائده نوعاً من الوحدة والانسجام،
فإن قصائد أخرى تبدو مفككة بحيث يكون الانتقال فيها من موضوع إلى آخر
ظاهراً على نحو واضح، ولا سيما في القصائد التي يطول فيها نفس الشاعر.

٢- الأسلوب والصورة:

يمثل أسلوب ابن عقيل الزرعي في بعض جوانبه الأسلوب الشعري الذي
يحرص على نشر الأجواء البدوية من خلال النسيب، وذكر الديار، ووصف
الطعائن، والحنين إلى بعض الأماكن المعهودة في جزيرة العرب، بالإضافة إلى

محاكاة الشعراء الأقدمين في أساليبهم وطرائق تعبيرهم. ولعل انتماء ابن عقيل إلى قبيلة عربية، ونشأته في منطقة حوران، واتصاله بزعماء بعض القبائل في مصر والشام لعل ذلك كله جعله يستشعر روح البداوة في نفسه، وانعكس ذلك على أنماط تفكيره وتعبيره. والشواهد على ذلك كثيرة في شعره، من ذلك الأبيات التالية التي ينحو فيها منحى الأقدمين في حديثهم عن الحياة الصحراوية، وتصويرهم الأطلال الدارسة، وحنينهم إلى ذكريات الحب القديم^(٧١):

أشأقك رسمٌ بعد أسماءٍ أوحشا تخال بقاياها الكتاب المرقشا
وكان مصيفاً للحسانِ ومرعباً ومغنى لمن أحببته ومعرشاً
ليالي يدعونا الصببا فنجيبه فيرضى الهوى عنا ويغضب من وشى

ويبدو تمثل الشاعر لمعاني الأقدمين وأساليبهم في الأبيات التالية التي يصف فيها الطعائن، متغنياً بجمال نسوتهن، ومصوراً غيرة قومهن عليهن، ودفاعهم عنهن^(٧٢):

لله ظعن من عقيل ودعوا فاستودعوا قلبي عقيل عقائل
بيضٌ وسُمرٌ كلٌ أبيض صارمٍ عنها يذود وكل أسمز ذابل
من كل ظامية المعاطف خرعب ربا الروادف، لذنة المتمائل

وينسج ابن عقيل على أساليب الأقدمين، ويستلهم ألفاظهم وتعابيرهم، ويقلدهم في معانيهم وأفكارهم حين يصف رحلته إلى الممدوح على ظهر ناقه قوية، مصطنعاً الألفاظ الصعبة، والكلمات الجافية، والصور البدوية^(٧٣):

وإفسرهم عنك بعنسدل من الهوج ميلاء الذراعين عرمس
هجان من الصهب العثانين تنتمي إلى شذني كالفنيق المجرفس
دمول إذا أمتها عرض الفلا ضحاء وفي جنح الظلام المعس

وإذا كان ليس من السهل رد الأشعار السابقة إلى أصولها في الشعر القديم، فإن ثمة أشعاراً أخرى يسهل ردها إلى قصائد بعينها. وهذا النمط يكون فيه التقليد ماثلاً على نحو واضح في الصياغة والمعنى والوزن والقافية، من ذلك قصيدته^(٧٤):

أعد ذكر نجد والمقيمين في نجد فلو لا هوى نجد صحت من الوجد

فالنسيب فيها ذو صلة قوية بقصيدة ابن الدمينة، التي مطلعها^(٧٥):

ألا هل من اليبين المفرق من بد وهل لليال قد تسلفن من رد

ومما يدل على أن ابن عقيل كان يستدعي معاني قصيدة ابن الدمينة السابقة التشابه بين معاني بعض أبيات الشاعر اللاحق وأبيات الشاعر السابق. فاليبتان التاليان لابن عقيل:

فإن صبا نجد يهيج صبابتي إذا هاج رياها عن البيان والرند
نأت وتصدت للصدود، وللنوى مع الوصل خير من رخو على البعد

يشبهان لفظاً ومعنى قول ابن الدمينة:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسراك وجداً على وجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذئ عهد

وقصيدة ابن عقيل التي مطلعها^(٧٦):

عرف الغرام وأنكر الأطلالا إذ لم تُجب عند الخطاب سؤالا

تدل على أن الشاعر كان ينظر على نحو واع في قصيدة جرير التي
مطلعها^(٧٧):

حيّ الغداة برامة الأطلالا رسماً تحمّل أهله فأحالا

فقد ذكر ابن عقيل أنه تفوق في قصيدته تلك على قصيدة جرير، وأرسي
عليها، وذلك في قوله:

أنست جريراً بالجزالة قوله "حيّ الغداة برامة الأطلالا"

وواضح مما سبق أن هناك تشابهاً في الموضوع بين قصيدتي ابن عقيل
وقصيدتي ابن الدمينه وجرير، بيد أن هناك قصائد أخرى حاكاها ابن عقيل دون
أن تجد تماثلاً في الموضوع بين القصائد السابقة والقصائد اللاحقة، وإنما يبدو
التمائل واضحاً في الوزن والقافية والصور والتعابير، أما الموضوع فمختلف.
من ذلك قصيدته التي قالها في رثاء حوران^(٧٨):

جار الزمان على سكان حوراننا لا كان دهر قضى بالجور لاكانا

فوزن هذه القصيدة وقافيتها وكثير من ألفاظها وتراكيبها وصورها مسلوخة
من قصيدة جرير التي مطلعها^(٧٩):

بان الخليط ولو طوّعت ما باننا وقطّعوا من حبال الوصل أقرانا

ولعل ارتباط الشعارين بمنطقة حوران هو الذي جعل الشاعر الثاني يترسم
خطى الشاعر الأول في هذه القصيدة وغيرها، بالإضافة إلى أن الإطار المكاني
للقصيدتين السابقتين واحد. وأورد فيما يلي طائفة متفرقة من قصيدة ابن عقيل
تتلوها طائفة ثانية من قصيدة جرير لتري كيف تأثر الشاعر اللاحق بالشاعر
السابق. يقول ابن عقيل:

كانوا يجيرون من جور الزمان فقد أضحوا من الجور في الأمصار جيرانا
يوماً بأوجع مني إذا وقفت على تلك القرى وتذكرت الذي كنا
كأن أظعانهم والأل يرفعها سفائن أشرعت أو نخل بيساننا
تري يعود إلى الأوطان ساكنها فأنظر الدارس الآيات عمراننا
صاح الجلاء بهم صوتاً فما لبثوا أن جاوبوه زرافات ووحدانا

فهذه الأبيات يقابلها من قول جرير الأبيات التالية:

حي المنازل إذ لا نبتغي بدلاً بالدار داراً ولا الجيران جيراننا
أوليتها لم تعلقنا علاقتها ولم يكن داخل الحب الذي كنا
كأن أحداجهم تحدى مقبلة نخل بملهم أو نخل بقراننا
هل يرجعن وليس الدهر مرتجعاً عيش طالما أطولسى وما لانا
جهلاً تمنوا حدائي من ضلالهم فقد حدوتهم متنى ووحدانا

غير أن هذا الأسلوب التقليدي لم يكن ليمنع ابن عقيل من أن يتأثر بمظاهر
الصنعة اللفظية التي شاعت بين شعراء عصره آنذاك، حتى في بعض القصائد
التي يصطنع فيها صور التعبير لدى الشعراء العذريين، كما في قوله متكرراً من
الطباق والجناس على نحو يدل على أنه لم يكن له غاية فنية من وراء ذلك إلا
هذه اللفظية الظاهرة^(٨٠):

إلام وعذري قائم في الهوى العذري ألام ، ووجدي ليس يصدر عن صدري؟

وحتام قلبي إن أسر الذي به من الحب، ظلّ الدمع والسقم في جهر؟
ينم شحوبي عن شجونني التي نمت فيسعدي وجدي، ويخذلني صبري

ولم تكن الصنعة في شعر ابن عقيل مقصورة على البديع بأنواعه، وإنما تعدته إلى التلوين في الأوزان والقوافي، فنظم قصيدة تقرأ على غير ما قافية واحدة، وعلى خمسة أوزان، ومما ورد فيها قوله^(٨١):

اسأل يجيبك من المعظم	نيله	المتوقر	الإحسان	والإكرام
سئل من الرقد العرمم	وبله	المتعجر	الهتان	والإنعام
ينيبك عن عيسى بن مريم	شكله	المستظهر	البرهان	والإعظام
ثبت إذا المقدام أحجم	مثله	فمدمر	الأوثان	والأصنام

وقد ينحو ابن عقيل في قليل من أشعاره أسلوباً ميسراً يمتاز بالسهولة والوضوح، والاقتراب من اللغة المحكية، واستعمال الألفاظ النابية - أحياناً - وغير النابية مما يشيع على السنة العامة. وقد رأينا طرفاً من ذلك قسي أشعار الهجاء، ونجد مثل هذا الأسلوب السهل في الأبيات التالية التي قالها يبشر بولاية أحد الأمراء، وتقترب هذه الأبيات من اللغة العادية اقتراباً شديداً، وغاية ما هنالك أن ابن عقيل أعرب كلامه، ورتب أجزاءه^(٨٢):

أذن في الأقطار داعي الرشاد حي على السعد ونيل المراد
وارتجع الحق إلى أهله وعاد ما كان برغم الأعادي
وحل فتح الدين في حصنه ذي المنظر الأعلى الرفيع العماد

ومع أن ابن الشعار الموصلي ذكر أن ابن عقيل كانت له القدرة على ارتجال الشعر، إلا أن طابع الخفة الارتجالية لا يبدو في شعره وإنما يبدو فيه - أحياناً - شيء آخر ربما كان من أثر هذا الارتجال، وهو أن بعض شعره يحمل أحياناً علامات الفجاجة والتعبير المرسل دون صقل، بالإضافة إلى التكرار الذي قد يدل أيضاً على ضالة في المحصول الفكري للشاعر، حيث تستحوذ عليه أنماط من المعاني والتعابير بصورة تسترعي النظر، كما في الأمثلة التالية المأخوذة من قصائد مختلفة^(٨٣):

* يَنمَّ شُحوبِي عن شُجونِي التي نَمَت فيسعدني وِجدي، ويخذلني صبري
* يَنمَّ شُحوبِي عن شُجونِي إذ نَمَت بهن وييدي الدمع ما في أضالعي
* نَمَّ شُحوبِي عن شُجونِي إذ نَمَت ما حيلتني وأدمعي تكلم

وحين ننظر إلى الصورة في شعر ابن عقيل فإنه يستبين لنا أن الشاعر لم يكد قريحته في تطلب الصور الجديدة أو المولدة التي كانت مقياساً في الحكم للشعر في عصره، وإنما ظل يردد في شعره الصور التي كثر دورانها في أشعار السابقين، ومن ثم فإن جل صور ابن عقيل صور نمطية جاهزة. ومع ذلك فقد تجد بعض الصور التي تصرف في إخراجها، فبدت جديدة أو كالجديدة، على شاكلة قوله يتحدث عن أخلاق أحد ممدوحيه^(٨٤):

خلق أرق من الصهباء لو قطرت يوماً على الملح قطرة عذبا

وقوله مصوراً الدنيا امرأة تلد لتقتل أبناءها^(٨٥):

ولدت لتقتل ولدها بعقوقها ياليتها قبل الولاد عقيم

غير أن بعض محاولات ابن عقيل للإتيان بالصور الجديدة تبدو فجسة

غير مستساغة كما في الأبيات التالية التي يصور فيها نفسه نبياً بُعث إلى الناس يدعوهم إلى المحبة، ثم يستطرد في الصورة فيجعل لنفسه معجزة وأنصاراً وديناً^(٨٦):

بُعِثْتُ نَبِيًّا لِلْمَحَبَّةِ دَاعِيًّا إِلَى الْحَبِّ عَنْهَا مِنْ يَصْدَقُ وَيَصْدَفُ
فمَعْجَزُ أَيَاتِي خَضُوعِي وَذَلَّتِي وَصَبْرِي وَأَنْصَارِي الْأَسِيَّ وَالْتَأَسْفُ
فَأُظْهِرْتُ لِلْعَشَاقِ دِينَ صِيَابَةٍ بِهَا الْحَبُّ أَضْحَى لِلْمُحِبِّينَ يُعْرِفُ

ومع أن ابن عقيل لم تكن لديه القدرة الفنية التي تسعفه على ابتكار الصور، فإنه وبتأثير من مقاييس عصره، كان يعمد إلى الإكثار من التشبيهات والاستعارات المستدعاة من الذاكرة، في البيت الواحد أو في الأبيات المتلاحقة، بحيث لا تغدو للشاعر أية غاية إلا تكديس الصور البيانية، على شاكلة قوله^(٨٧):

وَبَدْرِ مِنْ الْجُوزَاءِ صَبِغَ نَطَاقَهُ مِنْ النِّجْمِ قَرَطَاهُ، نَجَاهُ مِنَ الشَّعْرِ
يُشِيرُ بَعْنَابٍ وَيَرْنُو بِنَرْجِسٍ وَيَسْفِرُ عَنْ بَدْرِ، وَيَبْسُمُ عَنْ دُرِّ
نَضَا الْبَيْضِ مِنْ سَوْدٍ وَهَزَّ قَوَامَهُ فَصَالَ عَلَى الْعَشَاقِ بِالْبَيْضِ وَالسَّمْرِ

لذلك لم تؤد الصورة في شعر ابن عقيل أكثر من وظيفتها البلاغية، كاستعمالها دليلاً على صحة المعنى، ووسيلة للإقناع بطريقة غير حاسمة، كما في قوله^(٨٨):

أَنَا ذَاكَ الشَّهْمِ السَّذِيِّ بِفِرَاقِ الْأَهْلِ — لِـ وَالسَّادِرِ إِنْ نَأَى لَا يِيَالِي
لَا تَتَالِ الْحَمْدُ الظَّبَّاءِ وَهِيَ فِي الْأَغْصَانِ — سَمَادٍ حَتَّى تَسْلَى يَوْمَ الْقِتَالِ
وَالهَزْبِ الهَصُورِ فِي الْغَيْلِ إِنْ أَخْبَسَ — لَدَسَاقِ الرَّدَى إِلَى الْأَشْبَالِ

كما أدت الصورة وظيقتها في التزيين، كما في الأبيات التالية التي يصف فيها جمال أحد الغلمان الأتراك، مستعملاً الصور اللونية التي تمثل حمرة خديبه ووضاءة وجهه، والصور الذوقية التي تمثل لذة ريقه، والصور الشمسية التي تمثل طيب رائحته^(٨٩):

فخِذَاهُ وَرَدَّ الْعِذَارَ بِنَفْسِجٍ وَرِيَاهُ مَسْكَ، وَالْمَرَاشِفَ قَرْقَفُ
كَأَنَّ مَحْيَاهُ الْوَضِيءَ وَفَرْعُهُ صَبَاحٌ وَلَيْلٌ مُسْتَتِيرٌ وَمَسْدَفُ

وصور ابن عقيل معظمها من المنظور، وهو يقف فيها عند الشكل الخارجي، ولا يرتفع بها إلى درجة الإيحاء الفني. وهي كذلك صور جزئية لا يأتلف من مجموعها صور كبرى.

التوثيق:

- (١) ابن الشعار، عقود الجمان (ميكروفلم): ١: ١٢٣.
- (٢) المصدر السابق ١: ١٢٣. وقد ذكر ياقوت هذه القرية باسم 'زُرّاً'. وأشار إلى أنها تعرف في عصره باسم 'زُرْع' وأنها من حوران، ياقوت: معجم البلدان: (زرّاً). وانظر كذلك: العمري، مسالك الأبصار (دولة الممالك الأولى): ١٩٠.
- (٣) عقود الجمان (ميكروفلم) ١: ١٢٣.
- (٤) المصدر السابق.
- (٥) ابن عقيل الزراعي، المختار من ديوان ابن عقيل الزراعي (ميكروفلم): ٥.
- (٦) مرو العلاء: لم أجد موضعاً يعرف بهذا الاسم، وثمة قرية تعرف بـ (مرو) تقع شمال غرب إربد من الأردن، لعلها المقصودة، وثمة موضع آخر اسمه 'العلاء' ذكر البكري أنه أرض بالشام. البكري معجم ما استعجم ٣: ٩٦٣، ٩٨٠. بيت راس: قرية في الأردن تقع إلى الشمال من إربد. ابن خرداذبة، المسالك والممالك: ٧٨ ابن عبدالحق، مراصد الاطلاع ١: ٤١. إربد مدينة في شمال الأردن. ياقوت، معجم البلدان: (إربد) Robinson 3.533
- الحصن: قرية تقع إلى الجنوب الشرقي من إربد ١١٢: Schumacher.
- (٧) ابن عقيل الزراعي، المختار من ديوان ابن عقيل: ٤.
- (٨) المصدر السابق: ٤٢.
- (٩) المصدر نفسه: ٤٥.
- (١٠) قال هذه القصيدة يمدح متولي ثغر الإسكندرية، ومطلعها:
هي الدار ما بين اللوى والمعرس ففج بالمطايا الهوج فيها وعرس
- المختار من ديوان ابن عقيل: ٦١.
- (١١) انظر المختار من ديوان ابن عقيل: ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٦٨.
- (١٢) مطلعها:
أضاعت بك الأيام وابتهج الدهر وطال بك الإسلام وانخفض الكفر
- المختار من ديوان ابن عقيل: ١٣.
- (١٣) مطلعها:
أجد المقال لدى أجل مقام فلقد نطقت أمام خير إمام
- المختار من ديوان ابن عقيل: ١٢.

(١٤) منها قصيدة مطلعها:

إلام أَعْنَى فِي الهوى وَأَعْنَفُ وَحَتَامُ يجفونسي الحبيب وأعطفُ

المختار من ديوان ابن عقيل: ٥٠.

(١٥) مطلع القصيدة التي قالها مهيناً بالعيد:

الصبر ينقص والغرام يزيدُ والدمع يبدي والسقام يعيدُ

المختار من ديوان ابن عقيل: ٦٣.

(١٦) مطلعها:

سقى عطفه ماء الصبأ فتأودا وأسكره خمر السدلال ففردا

المختار من ديوان ابن عقيل: ٥٥.

(١٧) مطلعها:

رفعت للملك مجداً يخفض الشهباً ونال في عصرك الإسلام ما طلبا

المختار من ديوان ابن عقيل: ٣٨.

(١٨) مطلعها:

ماشت بقد السمهري الأهيفِ ورنت بحد المشرفي الأهيفِ

المختار من ديوان ابن عقيل: ٢٦.

(١٩) مدح في هذه السنة الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك، والملك العزيز عثمان،

والملك الأشرف (له فيه ثلاث قصائد)، والملك المعظم عيسى، والملك الناصر داود.

انظر المختار من ديوان ابن عقيل: ٥٩، ٢٢، ٦٠، ٧٣، ٧٤، ٧٥.

(٢٠) انظر المختار من ديوان ابن عقيل: ٧٦.

(٢١) ذكر ابن الشعر أن ابن عقيل توفي سنة ٦٢٣هـ، بينما ورد في الصفحة الأولى من

المختار من ديوانه أنه توفي سنة ٦٢٢هـ، ودُفن بمقابر باب الصغير من دمشق.

(٢٢) المختار من ديوان ابن عقيل: ٧.

(٢٣) المصدر السابق: ٦٢.

(٢٤) المصدر نفسه: ١٦.

(٢٥) نفسه: ٥.

(٢٦) نفسه: ٤٦.

(٢٧) نفسه: ١٨.

- (٢٨) نفسه: ٧.
- (٢٩) نفسه: ٢٧.
- (٣٠) ذكر بروكلمان هذه النسخة في كتابه تاريخ الأدب العربي ٥: ٥٠.
- (٣١) المختار من ديوان ابن عقيل: ٢.
- (٣٢) المصدر السابق: ٤٨.
- (٣٣) المصدر نفسه: ٢٠.
- (٣٤) نفسه: ٢٧.
- (٣٥) نفسه: ١٧.
- (٣٦) نفسه: ٢٩.
- (٣٧) نفسه: ٥٩.
- (٣٨) نفسه: ٥٦.
- (٣٩) نفسه: ٧.
- (٤٠) نفسه: ٣١.
- (٤١) نفسه: ٦٤.
- (٤٢) نفسه: ٧.
- (٤٣) نفسه: ٩١.
- (٤٤) نفسه: ٥٠.
- (٤٥) نفسه: ٤١.
- (٤٦) انظر إشارات إلى هذا الاجتياح في: ابن واصل، مفرج الكروب ٤: ٢٥٧؛ أبو شامة المقدسي، الذيل على الروضتين: ١٠٢.
- (٤٧) د. عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية: ١٥.
- (٤٨) المختار من ديوان ابن عقيل: ٣٩.
- (٤٩) ورد فوق هذه الكلمة كلمة (زرافات).
- (٥٠) قال ناسخ الديوان: (لعلها أمراس).
- (٥١) ما بين المعكوفتين بياض في الأصل، والزيادة من عندنا.
- (٥٢) بصرى: تقع في جنوبي حوران إلى الشرق من درعا. ياقوت، معجم البلدان: (بصرى) أبو الفداء، تقويم البلدان: ٢٥٢.
- الرمثا: مدينة تقع شمال الأردن على الحدود السورية. بيركهارت، رحلات بيركهارت: ١٤.
- نجران: قرية إلى الشمال الغربي من السويداء في سوريا. ابن عبدالخالق، مرصد الاطلاع ٣: ٢٠٠، ياقوت، معجم البلدان: (نجران).

(٥٣) حبال : من قرى وادي موسى في الأردن. ابن عبدالحق، مراصد الاطلاع ١: ٢٨٣،
ياقوت ، معجم البلدان: (حبال). السراة: سلسلة جبلية إلى الجنوب من البحر الميت: ابن
عبدالحق، مراصد الاطلاع ٢: ١٠٠. ياقوت، معجم البلدان: (السراة). ماب (مآب
ومآب): مدينة في جنوب الأردن. ياقوت، معجم البلدان (مآب). المقدسي، أحسن
التقاسيم: ١٧٨، ابن عبدالحق، مراصد الاطلاع ٣: ٢٥ .

(٥٤) المختار من ديوان ابن عقيل: ٥١.

(٥٥) المصدر السابق: ٥١.

(٥٦) المصدر نفسه: ٥٢ .

(٥٧) دعيل الخزاعي، ديوانه: ٢٤٤.

(٥٨) المختار من ديوان ابن عقيل: ٥٤.

(٥٩) المصدر السابق: ٥٤.

(٦٠) المصدر نفسه: ٧٦.

(٦١) نفسه: ٧٦.

(٦٢) نفسه: ٦٤.

(٦٣) نفسه: ٦٤.

(٦٤) نفسه: ٣٣.

(٦٥) نفسه: ٧١.

(٦٦) د. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ٣٢.

(٦٧) الجرجاني: الوساطة بين المتبني وخصومه: ٤٧.

(٦٨) المختار من ديوان ابن عقيل: ١٤.

(٦٩) المختار من ديوان ابن عقيل: ٤٠.

(٧٠) المصدر السابق: ١٢.

(٧١) المصدر نفسه: ٤٩.

(٧٢) نفسه: ٥٦.

(٧٣) نفسه: ٥٧.

(٧٤) نفسه: ٢٩.

(٧٥) ابن الدمينّة، ديوانه: ٨٠.

(٧٦) المختار من ديوان ابن عقيل: ٧.

(٧٧) جرير، ديوانه ١: ٤٧ .

(٧٨) المختار من ديوان ابن عقيل: ٣٩.

(٧٩) جرير، ديوانه ١: ١٦٠.

(٨٠) المختار من ديوان ابن عقيل: ٢.

- (٨١) المصدر السابق: ٧٧.
- (٨٢) نفسه: ٥.
- (٨٣) نفسه: ١٢، ٥٦، ٢.
- (٨٤) نفسه: ٣٨.
- (٨٥) نفسه: ٤١.
- (٨٦) نفسه: ١١٥.
- (٨٧) نفسه: ٢.
- (٨٨) نفسه: ٤١.
- (٨٩) نفسه: ٥١.

المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات:

١- ابن الشعار الموصلي، أبو البركات مبارك: عقود الجمان من شعراء هذا الزمان، ميكروفلم رقم ٣٣٩ تاريخ، معهد إحياء المخطوطات العربية، القاهرة.

٢- ابن عقيل الزرعي، أحمد بن عقيل بن نصير: المختار من ديوان ابن عقيل الزرعي، مخطوط، مكتبة طبقبو سراي، تركيا، رقم ٢٨١٦.

ثانياً: الكتب المطبوعة:

٣- د. إحسان عباس: تاريخ النقد العربي من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري: نقد الشعر، دار الأمانة ومؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧١.

٤- بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ترجمة د. رمضان عبدالنواب، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٣.

٥- البكري، أبو عبيد عبيدالله بن عبدالعزيز: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، د. ت.

٦- بيركهارت، لودفش: رحلات بيركهارت، ترجمة أنور عرفات، وزارة الثقافة، عمان، ١٩٦٩.

٧- الجرجاني، القاضي علي بن عبدالعزيز: الوساطة بين المتبني وخصومه، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٥.

٨- جرير بن عطية، ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق د. نعمان محمد، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٦.

٩- د. حسين عطوان: مقالات في الشعر ونقده، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧.

١٠- ابن خرداذبة، أبو القاسم: المسالك والممالك، مطبعة برييل، ليدن، ١٨٨٩.

- ١١- دعبل بن عليّ الخزاعي: ديوانه، جمعه وقدم له وحققه عبد الصاحب عمر الدجيلي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٧٢.
- ١٢- ابن الدمينّة: ديوان ابن الدمينّة صنعة أبي العباس ثعلب ومحمد بن حبيب، تحقيق أحمد راتب النفاخ، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ١٣٧٩هـ.
- ١٣- أبو شامة المقدسي: تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، دار الجبل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤.
- ١٤- د. عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبيّة، دار البشير، عمان، ١٩٨٩.
- ١٥- ابن عبدالحق، صفي الدين: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٥٢.
- ١٦- العمري، ابن فضل الله شهاب الدين: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دولة المماليك الأولى، تحقيق دوروتيا كرافوسكي، المركز الإسلامي للبحوث بيروت، ١٩٨٦.
- ١٧- أبو الفداء إسماعيل، تقويم البلدان،؟، بغداد، د.ت.
- ١٨- المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، ط٢، ١٩٠٦.
- ١٩- ابن واصل، جمال الدين محمد: مفرج الكروب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق د. جمال الدين الشيال، دار إحياء التراث القديم، القاهرة، ١٩٥٣.
- ٢٠- ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٢٩.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

- 21- Robinson, Edward: Biblical Researches in Palestine and the Adjacent Regions, Jerusalem, 1970.
- 22- Schumacher, Gottlieb: das Suedliche Basan, ZDPV, 1897, 20: 65-227.